

## النخلة في الشعر العربي

ورد في لسان العرب نَخَلَ الشَّيْءَ يَنْخُلُهُ نَخْلًا أَي صَفَّاهُ واختاره وفي الحديث: لا يقبل الله من الدَّعاء إِلَّا الناخلة أَي المنخولة الخالصة (1). والنخلة شجرة التمر لعلها سميت كذلك لكونها ذات ثمار مصطفاة في بيئتها الصحراوية بالإضافة إلى فوائدها الجمّة التي لا تحصى ولا تُعدّ سواء في الغذاء أو في السّكن أو في الحاجات الأخرى.

وقد جاء ذكر النّخل في القرآن الكريم عديد المرّات في صيغ مختلفة: ففي سورة الرحمان [فيهما فاكهة ونخلٌ ورمان] الآية 68 وفي سورة يس [وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعنابٍ وفجرنا فيها من العيون] الآية 34، أمّا النّخلة فإنّها لم تذكر إِلَّا مرتين وذلك في سورة مريم عند الآية 23 [فآجاءها المخاض إلى جذع النّخلة] وعند الآية 25 [وهزّي إليك جذع النّخلة تساقط عليك رطبًا جنينًا] (2).

وقد اشتملت اللغة العربية على معجم متنوع الكلمات بالنسبة إلى النخلة فإذا كانت النخلة صغيرة فهي الفسيلة والوديّة وإذا كانت قصيرة تنالها اليد فهي القاعدُ فإذا صار لها جذعُ فهي جبارةُ فإذا ارتفعت عن ذلكُ فهي الرّفلةُ والصّيّدانةُ فإذا زادت فهي بأسقةُ فإذا تناهت في الطولِ فهي سحوقٌ وإذا كانت النّخلة على الماءِ فهي كارعَةٌ فإذا كانت تحملُ سنةً وسنة لا تحمل فهي سنهأُ فإذا كان بُسرُها ينتثر وهو أخضر فهي خضيرةُ. فإذا دقّت من أسفلها وانجرت فهي صنبورٌ، فإذا مالت وجعلت تحتها دُكّانٌ تعتمدُ عليه فهي رُجبيّةُ، فإذا كانت مُنفردة عن أخواتها فهي عوانةُ.

أما الأفعال التي تنسب إلى النخلة فهي عديدة منها أنّ النّخلة في بادئ أمرها أطلعت ثم أبلحت ثم أبسرت ثم أرهت ثم أمعت ثم أرطبت أتمرت (3).

والتمرُّ عند أهل الجريد في تونس عشرات الأنواع من حيث الشكل واللون والمذاق ووقت جنيه ويزعمون أنّ أسماء التمر على عدد حروف الهجاء وأكثر من ذلك.

إنّ النّخلة رفيقة العربي في حلّه وترحاله منها يأكلُ وبظللها يلوذ وبسَعَفِها يبني بيته ويوقد ناره وله منها منافع أخرى في شؤونه اليوميّة وكلّما وُجدت النّخلة إنبثقت من حولها الحياة في الصحراء القاحلة وقد حملت عديد الأمكنة في الجزيرة العربيّة اسم النّخلة أو النّخيل كقول بعض الشعراء في المفضليات:

تَوُّمٌ بِهَا الْحُدَاةُ مِيَاةَ نَخْلٍ  
وَفِيهَا عَنْ أَبَانِينَ أَرْوَارُ (4)  
وَمِثْلُ قَوْلِ الْآخِرِ أَيْضًا:  
أَرْبَابُ نَخْلَةٍ وَالْقُرَيْظُ وَسَاهِمِ  
إِنِّي كَذَلِكَ أَلْفٌ مَالُوفٌ (5)  
وَكَقَوْلِ الْمَتْنِيِّ:  
مَا مُقَامِي بِأَرْضِ نَخْلَةٍ إِلَّا  
كَمُقَامِ الْمَسِيحِ بَيْنَ الْيَهُودِ (6)

وأرض نخلة في هذا السياق هي قرية عند بعلبك لبني كلب.  
ومن أشهر المواضع التي تُعرف بالنخل موع حلوان وهي مدينة  
كانت مشهورة قديمًا بالعراق وقد قال كثيرٌ من الشعراء في نخلتها  
عديد القصائد حتى روي أنّ المهديّ قد همّ بقطعها لكن المنصور نهاه  
عن عزمه قائلاً له أنّ لا فائدة له في قطعها ولا ضرر في بقائهما  
أيضًا.

الشاعر مُطيع بن إياس مرّ بالنخلتين فقال فيهما قصيدة من أحد  
عشر بيتاً مطلعها:

أَسْعِدَانِي يَا نَخْلَتِي حُلْوَانَ  
وَأَبْكِيَا لِي مِنْ رَيْبِ هَذَا الزَّمَانِ  
وَأَعْلَمَا أَنَّ رَيْبَهُ لَمْ يَزَلْ  
يُفَرِّقُ بَيْنَ الْأَلْفِ وَالْجِيرَانِ

والشاعر يذكر في هذه القصيدة حبه لابنه أحد كبار القوم في بلاد  
العجم ويحنّ فيها إلى عهده الجميل معها ثمّ يشكو حظه من الفراق  
قائلاً في آخرها:

وَبِرْغَمِي أَنْ أَصْبَحْتَ لَا تَرَاهَا  
الْعَيْنُ مَنِّي وَأَصْبَحْتَ لَا تَرَانِي  
إِنْ تَكُنْ وَدَّعْتَ فَقَدْ تَرَكْتَ بِي  
لَهَا فِي الضَّمِيرِ لَيْسَ بَوَانِ  
كَحَرِيقِ الضَّرَامِ فِي قَصَبِ الْغَابِ  
رَمْتَهُ رِيحَانٌ مُخْتَلِفَانِ (7)

إنّ نخلتي حُلْوَانَ ترمزان إلى الألفة والوصال بين الأحبة في كثير  
من الأشعار القديمة لأنهما كانتا قريبتين من بعضهما فإذا نظر المرء  
إليهما وهو على سفره أثارتا فيه الشجون وجميل الذكريات ويُروى أنّ

الأمير عبد الرحمان الدّاخل عندما فرّ إلى الأندلس واستقرّ بها رأى نخلةً في ساحة قصره فقال:

تبَدَّتْ لنا وسط الرّصافة نخلة  
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل  
نشأت بأرض أنت فيها غريبة  
فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

وقريبٌ من هذا الشّعور بالإغتراب عن المكان الأصلي وكذلك الأُنسُ في نفس الوقت بالنخلة عند مرآها قولُ الشّاعر محمد المرزوقي قصيدته التي جعلها تحت عنوان: (إلى النخلة الغربية) والتي مهّد لها بقوله: "دعاني بعض تلاميذي لقضاء عطلة الرّبيع المدرسية سنة 1945 بضیعة لهمم قرب ماطر بالشّمال التونسي وكانت تحت نافذتي نخلةٌ ذكّرتني بموطن الصّبا واحات النّخيل بالجنوب التّونسي) (8).

يستهلّ محمد المرزوقي قصيدته قائلا:  
وجودك في هذا المكان عجيبٌ  
فكيف هنا مكثُ إليك يطيبُ  
أيا نخلةً باتت على رغم أنفها  
يُصارعها الإعصار وهي كتيبُ  
وتعبثُ بالأغصانِ منها عواصفُ  
الشّمال وأوكارُ النّخيل جنوبُ  
فلا تحزني إنّ الحياة تنقلُ  
وصبرًا، كلانا في الحياة غريبُ

فالشّاعر محمد المرزوقي رأى في النخلة شبيهاً له في الغربية فعمد إلى بثّها حزنه كي يطيب بها نفسًا وبشدّ بها أزرًا إذا يقول عند آخر القصيدة:

أناجيك من بيتي هنا كلّ ليلةٍ  
فأذكر فيك موطني فأطيب  
وأنسى بك الآلام يا أنسَ غربتي  
وخطبُ فؤاد صارعته خطوبُ

وضمن السياق نفسه تقريبا أنشأ الشاعر أحمد اللغماني قصيدته التي بعنوان (النخلتان) سنة 1953 وقدّم لها هو أيضا كما يلي:

(نخلتان غريبتان في الطَّريق الواصلة بين قرنباية وبنى خلد  
رأيتهما ترتعشان في يوم شتاء وإعصار)(9).  
ومثلما استلهم مُطيع النُّخلة بن إِيَّاس وعبد الرَّحمان المداخل  
ومحمد المرزوقي الحنين والغربة من النُّخلة فإنَّ أحمد اللغمانى  
يفتح قصيدته بنفس المعانى تقريبا فهو يقول في أوّل قصيدة:

جذعان قاما ههنا في مسربي  
قذفتها الواحات مغتربان  
جذعان بل روحان من بلدي هنا  
في هذه الأصقاع معتنقان  
روحان في هذا العراء تغرّبا  
وبهذه الأهوال يشتجران

غير أنّ الشّاعر أحمد اللّغمانى جعل من هذه المناسبة عودةً إلى  
مرايع طفولته وصباه ممّا أضفى على القصيدة لونا آخر لم نعهده عند  
ذكر النخلة في ما سبق فهو القائل:

ألقاهما عند الصّحى فأخالني  
في واحة الزّارات ابنَ ثمانِ  
ألهو مع الأتراب تحت بواسقى  
مدّت إلى كبد السّماء بعنانِ  
والجدول المنسابُ يهزج تحتها  
مترنّحا كترنّج الشّشوانِ  
نتسلّق النخل المنيعَ تسابقًا  
ونعيث في عرجونه المزدانِ  
ونظّلّ بالبلح المجمع نرتمي  
حربٌ نوّجّجها بلا أضغان!

ففي القصيدة عواطف البهجة والمرح رغم بدايتها المتجهمّة كما  
نلاحظ أنّ التّعني بالنُّخلة والواحة والطفولة والأهل واضح لدى أحمد  
اللغمانى في هذه القصيدة وما الجذعان اللذان إعتراضاه في طريقه إلّا  
مناسبة للحديث في غرض الحنين إلى الصّبا.

ظلت النخلة على مدى العصور والأمصار ملهمة الشعراء عند  
تذكارتهم للماضي الزّاهر الذي عاشوه في غابر أيّامهم وحتّى الشاعر  
مصطفى خريّف عند معارضته لقصيد (يا ليل الصّب) وجدّ في النخلة  
أحسن داعية لتجديد عهده مع أعذب الأوقات:

العهد هلمَّ نجمٌ نَجْدُهُ فالدهرُ قد انبسطت يدهُ  
وتغزَّد فوق النَّخلِ يمامٌ يشجيكُ تغزُّدهُ  
والبلبُلُ هزَّ الغصنَ وغدَّى لحنَ الحبِّ يرُدُّه  
يتلو تسبيحَ صبايته فيرثله ويجوِّده  
والغاب تبسّم عن زهر شتى الألوان تنصّده

فالواحة تبدو لدى مصطفى خريف سنفونية من تناسق الألحان  
ولوحة من تآلف الألوان سرعان ما يركّز بعدئذ على آلاء النخلة الكثيرة  
قائلاً:

طمحت للنجم بواسفها فهاها النجم وفرقدهُ  
منحاه الرّفة فارتفعت تعنو لله وتعبيدهُ  
فجباها الله محاسنه ومكارمه جلت يدهُ  
تأوِّد كالنشوان فيفـ ضح غصن البان تأوِّده  
وتحلى الجيد بطلع أبيض مثل العقد تقلده  
وتدّر بثدي مثل العاج رحيقاً عذباً مورده (10)

قد وقف مصطفى خريف عند أهمّ خصائص النخلة سواء من ناحية  
المنظر أو من ناحية المأكل والمشرب أو من ناحية الجمال والزينة  
والرمز حيث تجاوز الوصف إلى الدلالة والمحدود إلى المطلق وهو  
تناول شعريّ نادر في تاريخ الشعر العربي الذي رغم أنّ النخلة تعتبر  
من أهمّ علامات بيئته إلا أنّها غير كثيرة التواتر فيه فإلى أيّ حدّ يمكن  
بحثُ غياب هذه الظاهرة.

إذا نحن عدنا إلى معلّقة إمرئ القيس باعتبارها أهمّ ما إصطفاه  
العصر الجاهليّ في الشعر، فإننا سنجد أنّه يذكر النخلة في سياق  
الغزل قائلاً:

وفرع يزين المّتن أسود فاحم  
أثيث كقنو النخلة المتعتكل

فشبه إمرؤ القيس غزارة شعر حبيته بعرجون النخلة في تدليّه  
وتناظره وتناسقه.  
وثمة في الأصمعيّات بيتٌ آخر في غرض الوصف عند تشبيه الإبل  
بالنخل عند قول الإيادي:

وإذا أعرضت تقول قصوِّر  
من سماهيج فوقها آطام

وإذا فجتها بطن غيب  
قلت نخلٌ قد حان منها صِرام (11)

أمّا البيت الوارد في شواهد لسان العرب فإنّ كلمة النَّخْل تعني في سياقه نوعًا من الحُلِيِّ لدى المرأة كانت تنزيّن به لعلّه يشبه في شكله النَّخْلَة:  
رأيتُ بها قضيبًا فوق دِعْصِ  
عليه النَّخْلُ أَيْع والكروم (12)

لكننا إذا تصفّحنا دواوين الشُّعر العربي الحديث بما فيه من خروج عن النَّسق العروضي القديم وبما فيه من أغراض ومعان جديدة، لاحظنا أنّ الشُّعراء العرب المعاصرين كثيرا ما يذكرون النَّخْلَة في قصائدهم فالشاعر بدر شاكر السَّيَّاب يجعل من النخيل إستهلالاً لقصيدته (أنشوة المطر) قائلا عند مطلعها:

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر  
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر  
عيناك حين تبسمان تورق الكروم  
وترقص الأضواء كالأقمار في تَهْر (13)

فالنَّخيل في هذا المقطع كالمنظر العام الذي تتحرّك فيه العناصر الأخرى فكأنّه إذن يمثل المشهد الأوّل حيث منه تنطلق بقيّة الحركات في القصيدة.

والشاعر الميداني بن صالح في قصيدة (في رحاب المتولّي) قد سلك من خلال تغّييه بالنَّخْلَة مسلكًا جديدًا بالنسبة إلى مسار شعره عامّة الذي دأب فيه على الواقعيّة وبالنسبة كذلك إلى تناولات الشُّعراء للنَّخْلَة حيث أنّه جعل قصيده المطوّل في منحى هو إلى التأمّل أقرب وإلى تصوّف أميل وهو من الرّمز ينبثق ومن التراث ينهل مثل قوله:

هذه النَّخْلَة لي  
سجّادة الوجد  
لمعراجي  
وكم كان تأجّل  
فهي لي أجنحة  
ما حملتها أبدًا  
يومًا نسور

هذه النَّخلة لي  
سَلْمُ نَوْزٍ  
لفضاءات التجلّي  
ولأعراس الحضور (14)

فقصيدة الميداني بن صالح إحتفال بالنخلة في أبعادها الروحية بما  
تضمّنه من تأملات إستلهمها الشّاعر من رموزها الصّاربة في التاريخ  
الإنساني ولا عجب في ذلك فالميداني بن صالح هو كذلك مثل الشعراء  
السابقين الذين كان موطنهم وميدان طفولتهم واحات النّخيل والذين  
وظّفوا ذكرياتهم فيها.

إنّ النّخيل يصبح لدى بعض النّصوص الشّعريّة الحديثة الأخرى رمزًا  
لمعاني التّأصل والثبات والصّمود ورمزًا للتشبّث بالقيم الوطنيّة في  
الفترات الصّعبة كما يتجلّى ذلك في قصيد الشّاعر محفوظ الجراحي  
(لأنّ الذي سوف يأتي أتى):

قديمًا إنتحلنا صفة النّخيل  
وقلنا لعصافير المدائن  
تعالى... تعالي استظلي  
ثمّ هَيَّأنا المساء للرّحيل  
وهَيَّأنا النّساء شجرا يقتفي أحلامنا  
وقلنا... سلامًا على الدّاهيين  
قديمًا تنبأنا أنّ الليل أشرعة  
مواقيت تختزل الفرح المسجّي  
ما بين ترياق الرّغبة والموت  
باعتاب الياسمين  
لتحيا البلاد  
بكل المعاني... وكلّ الأغاني  
والعلم المفدّي  
هتفنا.. هتفنا باسم البلاد،،، وقلنا نموت  
ليحيا النّخيلز. وتنعتق زيتونةً في المزاد..  
...قديمًا تعتق العشب في رؤانا.. اتّحدنا  
بلون السّماء... وأعلنا للبحر بيان النّخيل (15)

هكذا يعبر محفوظ الجراحي على صفات النّخيل وهي التي لا  
تُحصى ولا تعدّ وهي في هذا السّياق تتراوح بين الصّمود والصّبر وبين  
الأمل والفرح.

غير أنّ للنخلة حضورًا أوضح في الأدب الشعبي هذا الأدب الذي ما تزال الجامعات في أغلب البلاد العربيّة لا توليه العناية اللازمّة من الجمع والتّدوين والدراسة وهو أدبٌ ثريٌّ وراخزٌ بالمعاني والأبعاد لا نراها إلاّ سندًا للأدب العربيّ الفصيح.

وفي مجال النخلة فإنّ هذا الأدب الشعبيّ في تونس تضمّن تشبيه حاجبي المرأة إذا ما إقترنا بكونهما مثل النخلة وكثيرًا ما تُوصف المرأة عند إعتدال قوامها ورشاقة قدّها بالنخلة وتمثّل أغنية (يا زين الصّحراء) التي تتغنّى الفنّانة الراحلة صليحة بالبادية وبالجمال الأصيل أكثر الأغاني التونسية تداولاً وتعبيرًا عن الوجدان العارم نحو رمز النخلة في المخيال الشعبي ومثلما كتب محمد المرزوقي في قصيدة (إلى نخلة غريبة) فإنّه هو الذي كتب نصّ هذه الأغنية التي ترسم النخلة والمرأة كأبهى ما يكون.

ليس الشّعر وحده هو الذي إعتنى بذكر النخلة بل الرّواية هي أيضا سجّلت للنخلة صفاتها الفاتنة فهذا الأديب البشير خريّف يتحدّث عنها في روايته (الدقلة في عراجينها) قائلا:

النخلة، هذه الشّجرة المباركة التي لا تُشبه أيّة شجرة أخرى، وكم لها من شبه بالإنسان، لا فرع لها ولا غ صن، تنطلق من الأرض مستقيمةً جبّارةً فتنتفح في السّماء والنّور ويتفرّع جريدها من القلب منقوشًا متناظرًا أخضر باسقًا في دائرة كأنّه نؤارة خضراء، يلينُ سعفه ويرقّ حتى ليكاد أن يكون في نعومة الريشة، ويشتدّ عند اقترابه من الثمرة ويتصلّب حتى يصير شوكًا أسود الدّابة، مسدّدًا، يحمي الرّطب من الأيدي، دمها رحيقٌ عذبٌ، وقلبها لذيذٌ شهيّ، تزهو وتحلم، تسقي وتُسكّر، تلد وتجنّ، وتطلب الحبّ في الرّبيع(16).

تلك هي النخلة أصل الحياة في الصّحراء ومُلهمّة الشعراء والأدباء عبر العصور(17).

## الهوامش:

(1) لسان العرب لابن منظور - دار لسان العرب - بيروت ج 3- ص 605

- (2) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان، الجزء الثالث، ص 604.
- (3) فقه اللغة لأبي منصور الثعالبي - دار مكتبة الحياة ص 196.
- (4) المفضليات: تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون - دار المعارف بمصر، 1976، ص 338.
- (5) نفس المصدر، ص 374.
- (6) شرح ديوان المتنبي للشيخ ناصيف اليازجي، دار القلم، بيروت-لبنان، ص 16.
- (7) قصص العرب، دار الجيل، بيروت-لبنان، 1988، ص 224.
- (8) بقايا شباب، محمد المرزوقي، الدار التونسية للنشر-تونس 1966، ص 147.
- (9) قلب على شفة، أحمد اللغماني، الدار التونسية للنشر، تونس، ص 86.
- (10) يا ليل الصبِّ ومعارضاتها، الدار العربية للكتاب.
- (11) الأصمعيات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون هارون، دار المعارف بمصر، 1976- ص 188.
- (12) بدر شاكر السياب، الديوان، دار العودة، بيروت 1971، ص 474.
- (13) محفوظ الجراحي، لأنّ الذي سوف يأتي أتى، مجلة الموقف الأدبي، دمشق-سوريا، عدد 320، ديسمبر 1997، ص 39.
- (14) البشير خريّف، الدقلة في عراجينها، ص 14.
- (15) الشعراء المعاصرون الذين إستلهموا التّخلة كثيرون. أنظر مثلاً ديوان فصول بيضاء، علي دب، تونس 1989، وديوان إمراة الفسيفساء، سوف عبيد، دار الرياح الأربع، تونس 1985، وأنظر كذلك ديوان بوح البوادي، عبد العزيز سعود البابطين، المركز الثقافي العربي، بيروت 1995.